فكرة النظم بين الحقيقة والوهم

د. محمد حسن مصطفى
كلية التربية الأساسية- جامعة الموصل

المؤتمر العلمي السنوي الأول لكلية التربية الأساسية (23-24/أيار/2007)

ملخص البحث :

استخدمت كلمة النظم في مجال الدراسات اللغوية بمعنى قريب من معناها اللغوي وهو التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، إذ النظم في الكلام هو تأليف الكلمات في جمل وتراكيب على أساس المعاني الوظيفية التي تؤديها في التركيب، وهي التي أطلق عليها اللغويون (معاني النحو) لأن علم النحو هو الذي تناولها بالبحث، ووضع لها أسماءها، كالفاعلية والمفعولية والظرفية والحالية وغيرها، فالكلام العربي نظم، أو تأليف، أو صياغة لكلمات على نسق معين بحسب مقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وهذا المفهوم للنظم متفق عليه بين علماء اللغة جميعاً، ولم يدّع أحد منهم وضع هذا المفهوم أو إطلاق هذا الاسم عليه، بل تحدثوا عنه بوصفه من الأمور البديهية المسلمة في كل لغات البشر، وهذه هي ظاهرة النظم، غير أن هناك مفهوماً آخر للنظم يدل على الأساليب المختلفة التي يعبر بها الأدباء والشعراء عن أفكارهم ومشاعرهم، يمكن أن يسمى (فن النظم) أما قواعد وأصول الكلام البليغ، فيمكن أن نطلق عليها (علم النظم) وهو بهذا المفهوم علم البلاغة، وهذه المفاهيم الثلاثة لا ترقى إلى مستوى نظرية تختص بها اللغة العربية أو علم من علومها، كما يحلو لكثير من الدارسين المحدثين أن يسموه أو يصفوه، ولا مسوّغ للقول بأن الشيخ عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – هو الذي أبدع هذه النظرية، أو أعطى لها مفهوماً مغايراً لما تعارف عليه من سبقوه، أو أنه جعل النظم عنواناً لما عرف فيما بعد باسم علم المعاني. وكل ما في الأمر أن الشيخ الجرجاني طرح بعض الأفكار التي انفرد بها في تفسير وشرح النظم، وهذه الأفكار التي قال بها عدد من الباحثين المعاصرين لها أسبابها وبواعثها، وهي تتلخص – من وجهة نظري – في النقاط الآتية:

1. الخلط بين فكرة النظم في الكلام ، ونظرية النظم التي فسر بها العلماء إعجاز القرآن الكريم، فقد ذهب الباحثون في أسباب الإعجاز القرآني وأسراره مذاهب شتى، وأرجح مذاهبهم أن القرآن إنما كان معجزاً بنظمه، وشاع استخدام نظرية النظم بوصفها إحدى النظريات التي فسر بها العلماء أسباب الإعجاز القرآني، واستخدام هذه العبارة لا يعني إثبات وصف

(النظرية) للنظم في ذاته، كما لا توصف (الصرفة) بمعنى أن الله عز وجل صرف قوماً أو فئة من الناس عن أمر ما بقدرته ، بأنها نظرية، وإنما وُصفا بذلك حين فُسّر بهما عجز العرب عن معارضة القرآن .

2. من المعروف أن نظم الكلام يختلف بحسب المقام ومقتضى الحال، ويتفاوت الكلام في مستوى البلاغة والإجادة، بناء على ذلك، وأعلى مراتبه الإعجاز الذي اختُصّ به نظم القرآن، وقد حاول علماء البلاغة أن يستنبطوا منه قواعد للكلام البليغ، وما جواهر البلاغة إلا من مغانم غوص العلماء في بحار النص القرآني، وللإمام الجرجاني في ذلك حظ وافر، وقد أكد في غير موضع من الدلائل على أن النظم في حد ذاته لا يقتضي التفاوت، ولا تترتب عليه مزية، وإنما المزية في مطابقة نظم الكلام لمقتضى الحال، مما يدعونا إلى التفرقة بين فكرة النظم القائمة على معاني النحو، وفكرة المقام التي قام عليها حد البلاغة، وعدم التدقيق في كلام الشيخ الجرجاني في دلائل الإعجاز أوقع في وهم البعض أن له مفهوماً للنظم مغايراً لغيره من العلماء السابقين، ولعل كثرة تكراره لهذه الكلمة في مواضع متعددة عززت مثل هذا الوهم، ولا ينكر أن الجرجاني انفرد ببعض الأفكار في سياق شرحه المستفيض لفكرة النظم، منها قوله بأن المتكلم يتوخى معاني النحو في نظم الكلام، وأن الكلام تترتب معانيه في النفس، وهي التي تختار لنفسها الألفاظ المناسبة لها، والمتكلم لا يطلب اللفظ بحال، وإنما يطلب المعنى، وهي فكرة كلامية جعلها الجرجاني محوراً أساسياً لكتابه (دلائل الإعجاز) وقد ناقش البحث هذه الأفكار، وعدها نقاط ضعف في فكر الجرجاني اللغوي، والبلاغي.

3. وثمة سبب آخر يعزى إلى مقاربات غير دقيقة لدى بعض الدارسين المعاصرين المغرمين بالنظريات الغربية الحديثة في مجال الدراسات اللغوية، بين بعض الأفكار التي طرحها الشيخ عبد القاهر الجرجاني وبعض تلك النظريات، وما احتفاؤهم بجهود الشيخ الجرجاني إلا تعبير عن إعجابهم وتأثرهم بالنظريات الغربية، يقابله تجاهل مقصود للجهود الضخمة والإنجازات الكبيرة لعلماء العربية، واختزال لها في مساحات ضيقة .

Concept of Composing Between Reality and Illusion

Dr . Mohammed Hasen Mostafa

College of Basic Education-University of Mosul

Abstract:

Composing has been used in linguistic studies, closely referring to its linguistic meaning: writing, and joining something to another. Composing in speech is arranging words in sentences and structures based on the functional meanings by such structures. Such structures are called meanings of syntax by the linguists as syntax is the field where such structures are examined and named, like subjective, objective adverbial and other cases. Arabic speech is composing, writing or forming words in accordance with a certain pattern based on standards derived from inducing Arab speech. This concept of composing is agreed upon by the all the linguists, and none of them claimed the creation of this concept, but all of them deal with it as one of principle notions in all languages. It is not a theory of Arabic language, as some of the modern scholars claim, and there is no reason to say that Sheik Abdul Qahir Al Jurjani –may mercy of Allah be upon him– found this theory, gave it a different concept, or make composing a title for what is later known as semantics. These ideas claimed by modern scholars have their own reasons and could be –in my view– summarized as follows:

1. The merge of the concept of composing in speech and theory of composing which scholars use to explain the Quranic miracle. Scholars varied in explaining reasons of Quranic miracle and they stated that Quran was a miracle in composing. Theory of composing was familiar as one of the theories used by the scholars to explain Quranic miracle. Using this phrase does not mean the confirmation of describing the theory of composing itself, but rather

2. It is well known that speech composing is different in accordance with context of situation and speech is, thus, rhetorically and fluently different. Rhetoricians have tried to derive rules of fluent speech from the Holy Quran, as Quran has the highest ranks of fluent, rhetorically speech. Al Jurjani's *Jewels of Rhetoric* is one of the examples for studying Quranic rhetoric for this purpose. He stated that composing is not restricted to variance and this is not a characteristic. However, the characteristic lies in speech agreement with context of situation and this makes us differentiate between the concept of patterns based on syntactic meanings and concept of context that rhetoric is based on. Not fully understanding Al Jurjani views make some falsely think that he has adopted a concept different from other scholars, and his repetition for such word in many positions supported such beliefs.
3. The inaccurate comparisons by some modern scholars, highly affected by modern western linguistic theories, of Al Jurjani concepts and such theories. Their admission of Sheik Al Jurjani's efforts indicate their admiration and their affect by western theories is faced by a deliberate ignorance of the vast efforts of Arab scholars.

مفهوم النظم:

اقترنت كلمة النظم التي استخدمها اللغويون والأدباء في الكلام بمعناها اللغوي، وهو كما قال صاحب العين: ((نظمك خرزاً بعضه إلى بعض في نظام واحد، وهو في كل شيء، حتى قيل: ليس لأمره نظام، أي لا تستقيم طريقته، والنِظام كل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره))[1]. وعلى هذا جرت المعاجم التي وضعت بعد العين[2] وزاد الزمخشري (ت538هـ): ((ومن المجاز: نظم الكلام، وهذا نظم حسن))[3] والنظم أيضاً السرد ((والخرز أيضاً مسرود، إذا نظم، وكل شيء

(1) العين، للخليل: (نظم).

(2) كالتهذيب للأزهري (ت 370هـ) والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (ت 385هـ)

(3) أساس البلاغة: (نظم).

وصلت بعضه ببعض فقد سردته سرداً))[1]وفي الصحاح: ((ومنه نظمت الشعر))[2]، من غير الإشارة إلى كون هذا الاستعمال للنظم مجازياً، وفي لسان العرب: ((النظم : التأليف...ونظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك، ومنه نظم الشعر...وكل شيء قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته))[3] وهذا التعميم يدخل تأليف الكلام ونظم الشعر في المعنى اللغوي لهذه الكلمة، ويغني عن القول بأن استخدام النظم للكلام على سبيل المجاز.

وبهذا المعنى استخدم الأدباء والبلاغيون كلمة النظم للدلالة على تأليف الكلام، والإبداع والبراعة في صياغته، وابن المقفع (ت142هـ) من أوائل من استخدموا النظم بطريقة تمزج بين المعنى اللغوي عند أصحاب المعاجم، والمعنى المجازي الأدبي، وذلك في قوله: ((فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم –وإن أحسن وأبلغ– ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً، فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه، وما يزيد بذلك حسناً، فسمي بذلك صائغاً رقيقاً، وكصاغة الذهب والفضة، صنعوا منها ما يعجب الناس من الحلي والآنية...فمن جرى على لسانه كلام يَستحسنه، أو يُستحسن منه، فلا يعجبن إعجاب المخترع المبتدع، فإنه إنما اجتناه كما وصفنا))[4] .

وما وصفه هو الإبداع الذي تتفاوت فيه ملكات الأدباء، وقدراتهم في صوغ الكلام, ونشأت من أجل معرفة قواعده وأصوله علوم البلاغة، وهو ما نسميه اليوم بالأسلوب، الذي يتميز به كاتب عن كاتب، وشاعر عن غيره.

ومما يجدر الوقوف عنده أن أدباء العربية ونقادها القدامى آثروا استخدام كلمة النظم على كلمة الأسلوب، على الرغم من استخدامهم للكلمتين بمعنى واحد، فقد عرّفوا الأسلوب بأنه الطريقة والمذهب في صياغة الكلام، وقد استخدمها أبو عبيدة (ت209هـ) منذ وقت مبكر، فقال عن الأعشى: ((فسلك أساليب لم يسلكوها)) يقصد غيره من الشعراء، وعلّق قائلاً: ((وأساليب: جمع أُسلوب، وهو الطريق))[5].

ونقل المبرد (ت286هـ) عن بعض نقاد الشعر قوله: ((إن جريراً سلك أساليب من الشعر لم يسلكها الفرزدق))[6] وعن أمثال العرب يقول أبو هلال العسكري (ت395هـ): ((ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جل أساليب القول، أخرجوها في

---

(1) جمهرة اللغة لابن دريد (ت321هـ) (درس).

(2) للجوهري (ت 393هـ).

(3) لابن منظور (ت711هـ) (نظم).

(4) الأدب الصغير: 6-8.

(5) الديباج: 6.

(6) الفاضل : 108

أقواها من الألفاظ))[1] وفي موضع آخر يعرف العسكري الأسلوب بقوله: ((الأسلوب: الطريقة، يقال: أخذ في أساليب من القول، أي في طرق منه))[2].

وهذا هو ما قاله ابن دريد في جمهرة اللغة[3] وورد في تهذيب اللغة: ((والأسلوب: الوجه والطريق والمذهب))[4]وزاد صاحب المحيط: ((ومنه أساليب الشعر ومذاهبه))[5]وفي اللسان: ((والأُسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه))[6].

وقال الجرجاني (ت471هـ) متحدثاً عن الاستعارة: ((ولها ها هنا أساليب كثيرة، ومسالك دقيقة مختلفة))[7]وقال عن التوفيق بين الألفاظ والمعاني في السجع، أن ذلك يقتضي أحياناً العدول ((عن أسلوب إلى أسلوب))[8]وعن الاحتذاء قال: ((واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء، وأهل العلم بالشعر، وتقديره وتمييزه، أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً، والأسلوب: الضرب من النظم، والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره.))[9].

وحين تحدث ابن الأثير (ت637هـ) عن الالتفات قال: ((اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن، إذا سئلوا عن الانتقال عن الغَيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: ((كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها...وقال الزمخشري-رحمه الله-: ((إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، إنما يستعمل للتفنن في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب، تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه...))[10]ونقل القزويني (ت739هـ) كلام الزمخشري هذا في فن الالتفات، وأنه انتقال من أسلوب إلى أسلوب، لتنشيط ذهن السامع، ودفع الملل عنه[11].

---

(1) جمهرة الأمثال: المقدمة: 3

(2) نفسه: 273.

(3) في مادة (بسل).

(4) للأزهري: (سلب).

(5) المحيط في اللغة للصاحب بن عباد: (سلب)

(6) لسان العرب لابن منظور: (سلب).

(7) أسرار البلاغة:52.

(8) دلائل الإعجاز:62.

(9) نفسه: 468.

(10) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 181-182.

(11) انظر: الإيضاح: 82.

فالأسلوب إذن، عند أهل اللغة والبلاغة، هو طريقة في تأليف الكلام، كما هو النظم تماماً، ولا يختص بعلم المعاني، كما رأى الدكتور أحمد مطلوب،[1]بل هذا هو المقصود بـ(علم الأسلوب) عند المحدثين، يقول أحدهم: ((مصطلح أسلوب مصطلح حديث يقصد [به] طريقة في التعبير خاصة بالأديب))[2]وهذا ما عناه أبو عبيدة حين قال عن الأعشى، أنه سلك أساليب من الشعر لم يسلكها غيره من الشعراء، وهو معنى ما نقله المبرد عن بعض النقاد: ((إن جريراً سلك أساليب من الشعر لم يسلكها الفرزدق)) وهو مدلول الأسلوب في كل النصوص التي نقلناها آنفاً، ولكن الأدباء، والبلاغيين آثروا استخدام كلمة النظم–كما ذكرت– لأنهم كانوا يستحضرون الصورة الحسية لنظم اللؤلؤ والخرز، ويشبهون بها عملية إنشاء الكلام، وكانت هذه الصورة الحسية أكثر حضوراً في الأذهان، وأكثر قبولاً في الذوق العربي من كلمة (أسلوب) ذات الدلالة التجريدية، ويفسر الدكتور شوقي ضيف استخدام الشيخ الجرجاني لمصطلح النظم، بأن هذا المصطلح ((كان يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه، على نحو ما مرّ بنا عند الباقلاني، وحقاً أن الجاحظ أول من وضع هذا الاصطلاح، وعلل به الإعجاز القرآني، ولكن يبدو أن الأشاعرة كانوا يتمسكون به، بينما مضى المعتزلة منذ أبي هاشم الجبائي يضعون مكانه الفصاحة، وقد ردّها إلى حسن اللفظ وحسن المعنى.))[3].

لاشك أن الجرجاني تحدث عن النظم بطريقة مختلفة عمن سبقوه، ومن جاءوا بعده أيضاً، وأول مظاهر الاختلاف، كثرة ترداده لهذه الكلمة، ثم طريقة تفسيره لها، مما حدا بكثير من الباحثين في عصرنا إلى أن يجعلوا هذه الكلمة عنواناً لنظرية قالوا أنه استحدثها وانفرد بها، وبالغ كثير منهم في الحديث عن هذه النظرية بما لم يخطر ببال الشيخ الجرجاني نفسه، وهو يشرح فكرة النظم التي أشار إليها الآخرون، ولم يجدوا ضرورة لتحليلها، والتفصيل في شرحها.

ولعل سؤالاً يطرح هنا، ما الضرورة التي دفعت الجرجاني إلى هذا الشرح المستفيض حول النظم؟! وهل كان تصوره للنظم مختلفاً عن غيره؟! والإجابة عن ذلك تقودنا إلى بيان سبب تأليفه لكتاب (دلائل الإعجاز) وما قاله عن ذلك في مقدمته، يقول الجرجاني: ((ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) و (البيان) و (البراعة) وفي بيان

---

(1) يقول الدكتور مطلوب: ((إن مصطلح (أسلوب) لا يشمل البلاغة كلها، بل يخص بعضها، أو يكون أشد ارتباطاً بقسم من موضوعاتها، وهي (علم المعاني) ولذلك سمينا هذا الكتاب (أساليب بلاغية) وسمينا ما يبحث في علمي (البيان) و (البديع) (فنون بلاغية).)) أساليب بلاغية: 62. وللدكتور غازي يموت كتاب بعنوان: (علم أساليب البيان) تناول فيه مباحث علم البيان وسماها (أساليب) كما سمى مباحث المعاني (علم أساليب المعاني) ومباحث البديع (علم أساليب البديع) ينظر: علم أساليب البيان: 13–15.

(2) من مقال لعدنان بن زريل، نقلاً عن : علم أساليب البيان: 61.

(3) البلاغة تطور وتاريخ: 161.

المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء...ووجدت المعول على أن هاهنا نظماً، وترتيباً، وتأليفا، وتركيباً، وصياغة، وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً...ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة: ((أنها خصوصية في نظم الكلم، وضم بعضها إلى بعض، على طريق مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة)) أو ما أشبه ذلك، من القول المجمل، كافياً في معرفتها، ومغنياً في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها، وإذا كان هذا هكذا، علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً...))[1].

ففي هذه المقتطفات التي نقلت من مقدمته إشارة واضحة إلى رأي الجاحظ (ت255هـ) في العمل الإبداعي، وأنه صياغة وتصوير، ونسج وتحبير، وإلى كلام القاضي عبد الجبار (ت415هـ) في كتابه (المغني) ونصه: ((إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة...))[2]ولا يشي كلامه بشيء من الاعتراض على ما ذكر، وإنما يعترض على إجماله، وعدم كفايته في إبراز الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، فلا يكفي القول بأن ثمة خصائص ومزايا في تركيب الكلام، ترفع من شأنه وتبلغ به إلى حد الإعجاز، بل لابد من بيان هذه الخصائص والمزايا، والسبيل إلى ذلك ((استقراء كلام العرب، وتتبع أشعارهم والنظر فيها))[3]وهذا بالضبط ما فعله الجرجاني، وبرع فيه، ففجر طاقات اللغة التعبيرية بقواعد البلاغة ووسائلها التي قال بها الآخرون بعبارات مجملة، وتحدث عن موضوعات البلاغة، ومفاهيمها، وقضاياها، باسم النظم، إذ لم يتحدد، إلى زمان الجرجاني، مفهوم هذا العلم، ولم تضبط مباحثه، ولم يتفق العلماء على اسم يعرفونه به، فقد سماه (علم البيان) في فاتحة كتابه (الدلائل) وبين فضله، وما لقيه من ضيم، وما مني به من حيف، ومن ذلك عدم وضوح دلالته، وتشابك مفهومه مع مصطلحات أخرى، مثل الفصاحة، والبلاغة، والبراعة،[4] ومما يتضح من مقدمة الجرجاني لكتاب الدلائل أنه ألفه في علم البيان، لرفع الحيف عن هذا العلم الذي لم يعطه العلماء حقه من الاهتمام، وضاعت حقائقه بين كثير من الأوهام، فالموضوعات التي عرضها هي مباحث علم البيان، والأفكار والتصورات التي أثارها هي مفاهيم تندرج تحت هذا العنوان، ومنها فكرة النظم التي أطال الحديث عنها، وأسهب في شرحها، وما هي في النهاية إلا مضمون علم البلاغة ومفهومه وحدّه عند الشيخ الجرجاني.

---

(1) الدلائل: 34-37.

(2) المغني: 16/ 199.

(3) الدلائل:41.

(4) ينظر: 5-7.

وما وقع من لبس في شأن هذه الفكرة عند المحدثين سببه فصلها من السياق التاريخي لتطور مفاهيم البلاغة ومصطلحاتها، فكلمة البلاغة لم تأخذ مفهومها الاصطلاحي الواضح إلا في القرن الثامن الهجري على يد الخطيب القزويني (ت 739هـ) الذي نص بوضوح على أن كتابيه (التلخيص) و (الإيضاح) يندرجان تحت علم البلاغة[1]ولا نجد مثل هذا الوضوح حتى في مفتاح السكاكي (ت626هـ) الذي ذكر علمي المعاني والبيان من غير أن يذكر البلاغة، ولم يذكرها إلا بعد الانتهاء من مباحث العلمين، إذ ختم مباحثهما بتعريف البلاغة والفصاحة، ولم تقترن البلاغة عنده بكلمة العلم، ولا عدّها مرجعاً لعلمي المعاني والبيان، بل هما مرجعان للبلاغة[2].

لم يلتبس مفهوم النظم عند الشيخ الجرجاني على القدماء من معاصريه، والذين جاءوا بعده، ولكن أكثرهم لم يوافقوه على هذا المفهوم، فأعرضوا عنه، ولم يقفوا عنده، ولم يمنعهم ذلك من الأخذ بالمباحث البلاغية القيمة التي عرضها، وبرع في تفصيلها، أما من ذكره، مؤيداً له أو معترضاً عليه، فقد نص بوضوح على أن مفهوم النظم عنده، ما هو إلا مفهوم علم البيان أو البلاغة، ولا أعرف من اتجه إلى تبني أفكاره والإشادة بها سوى الشيخ كمال الدين الزملكاني (ت651هـ) إذ أثنى في خطبة كتابه (التبيان) على الجرجاني وكتابه (دلائل الإعجاز) ولاحظ فيه التوسع الزائد، مع عدم التبويب والترتيب، وعقد عزمه على ((جمع مقاصده وقواعده، وضبط جوامحه وطوارده))[3]وفي هذا الكتاب جعل تعريف الشيخ الجرجاني للنظم هو نفسه حد علم البيان، فقال: وعلم البيان...عبارة عن توخي معاني النحو في التركيب))[4] ويلاحظ في هذا التعريف أنه أخرج المجاز من علم البيان، إذ عدّه في الدلالات الإفرادية التي تشتمل على أقسام المجاز الثلاثة عنده: الكناية، والاستعارة، والتمثيل، وقد استدرك ذلك في كتابه الثاني (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن) فقال في تعريف علم البيان: ((أما حقيقته، فعلم يعرف به معاني المجاز على اختلاف مراتبه، وتوخي معاني النحو في التركيب))[5]وفي هذا التعريف أدخل المجاز بمراتبه المختلفة في علم البيان، إلى جوار مباحث النظم، إذ الشطر الثاني منه هو تعريف النظم عند الجرجاني، وقد صرح الجرجاني في مواضع من الدلائل بأن المجاز غير النظم، يقول: ((اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول: الكناية، والاستعارة، والتمثيل الكائن على حد

---

(1) انظر : خطبة الكتابين.

(2) انظر: مفتاح العلوم: 526-527.

(3) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن: 30.

(4) نفسه: 32.

(5) ص44.

الاستعارة، وكل ما كان فيه، على الجملة، مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر...))[1] وهذا الذي فهمه الزملكاني من كلام الجرجاني، هو نفسه الذي دعا كثيراً من الدارسين المحدثين إلى القول بأن الجرجاني تحدث عن علم المعاني باسم النظم، في كتابه (الدلائل) واختص (الأسرار) بعلم البيان، ومنهم من زاد على عنوان الكتاب الأول: في علم المعاني، وعلى عنوان الثاني: في علم البيان[2]ومنهم من اعتقد أن السكاكي أخذ عنوان علم المعاني من معاني النحو، بعد أن ((بتر عبارة (معاني النحو) فأصبحت عنده علم المعاني، وعدّه القسم الأول من البلاغة))[3]وكثيرون من يعتقدون أن الجرجاني هو ((أول من أرسى قواعد علم المعاني، على نحو متكامل في كتابه (دلائل الإعجاز).))[4]وفي هذا الكلام وأمثاله ما لا يصح، وفيه ما ليس دقيقاً، في فهم كلام الشيخ الجرجاني ومقاصده في كتابيه.

وفيما يخص النظم، وعلاقته بالمجاز، نرى أن كلام الجرجاني لم يكن واضحاً في تحديد هذه العلاقة، ففي حين وجدناه يصرح في النص السابق بأن المجاز لا يدخل في حكم النظم، نجده في موضع آخر يقول: ((وجملة الأمر أنا ما رأينا في الدنيا عاقلاً اطّرح النظم، والمحاسن التي هو السبب فيها، من الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وضروب المجاز والإيجاز، وصد بوجهه عن جميعها، وجعل الفضل كله، والمزية أجمعها، في سلامة الحروف مما يثقل...))[5]فالنظم هنا هو السبب في محاسن الاستعارة، والكناية، والمجاز، والإيجاز، وكان أكثر صراحة حين واجه إشكالية ((إخراج ما في القرآن من الاستعارة، وضروب المجاز، من جملة ما هو به معجز، وذلك ما لا مساغ له)) عنده، لأنه يرى انحصار الإعجاز في النظم، وذلك ((يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز، وذلك لأن هذه المعاني التي هي: الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النظم، وعنه يحدث، وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد، لم يُتوخَّ فيما بينها حكم من أحكام النحو...))[6]ولعل هذا الكلام هو الذي يتفق مع مفهومه للنظم، فهو شامل لكل مباحث البلاغة، ولا يختص بمباحث علم المعاني، أما عدم استفاضته في الحديث عن مباحث المجاز، والاستعارة، والكناية، والتشبيه، وقد ذكرها ووقف عندها، فسببه أن هذه المباحث قد عالجها بالتفصيل في كتابه (أسرار

(1) الدلائل: 429-430. وفي ص99 جعل الكلام ثلاثة أقسام، والثالث هو قسم ((قد أتاه الحسن من الجهتين)).

(2) هو الشيخ محمد رشيد رضا في نشرته للكتابين، في مطلع القرن العشرين.

(3) البلاغة عند السكاكي، للدكتور أحمد مطلوب: 304.

(4) البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، للدكتور علي عشري زايد: 21.

(5) الدلائل: 524.

(6) نفسه: 393.

البلاغة) يقول تحت عنوان ((في اللفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره)): ((اعلم أن لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً، لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه، يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية، والمجاز))[1]وبعد أن عرّف الكناية، وذكر أمثلتها، قال: ((وأما المجاز، فقد عوّل الناس في حدّه على حديث النقل، وأن كل لفظ نُقل عن موضوعه، فهو مجاز، والكلام في ذلك يطول، وقد ذكرت ما هو الصحيح من ذلك في موضع آخر! وأنا اقتصر ههنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر))[2]. وإذا نظرنا في (أسرار البلاغة) نجد هذا التفصيل الذي أشار إليه في (الدلائل) في حدّ المجاز[3].

وفي هذه الإشارة دلالة قوية على كون (دلائل الإعجاز) مؤلفاً بعد (أسرار البلاغة) واختصاص (الأسرار) بمباحث التشبيه، والمجاز، والكناية، سببه واضح، فهذا الكتاب وضعه في نقد الشعر، وبيان محاسنه، والمعوّل في ذلك على الصورة الشعرية، وأدواتها من التشبيه، وأنواع المجاز، والكناية، وصور البديع.

هكذا فهم الزملكاني النظم في (دلائل الإعجاز) بعد ما يقرب من قرنين من الزمان على تأليفه، ولم يلقَ عمله هذا في تبويب الدلائل، وترتيب مباحثه، وتوضيح مقاصده، قبولاً ملحوظاً، وقد ردّ عليه أحد معاصريه بكتاب سماه (التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات)[4]ربما تناول هذا الجانب.

وللخطيب القزويني كلام يوفق فيه بين مفهوم النظم الجرجاني وكلام البلاغيين، ويضع هذا المفهوم في سياقه الصحيح من تطور البحث البلاغي، إذ يقول بعد أن يعرف بلاغة الكلام بمطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته: ((وهذا –أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال– هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم، حيث يقول: ((النظم تآخي–والصحيح توخي– معاني النحو فيما بين الكلم، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام))[5].

ومع أن كلام القزويني دقيق في توضيح مفهوم النظم عند الجرجاني في مستواه البلاغي، إلا أن هذا المفهوم له جوانب ومستويات أخرى عند التفصيل، وهو ما يوقع البعض في لبس من فهمه، فهو حين يقول: ((معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها

---

(1) الدلائل: 66.

(2) نفسه: 66–67. وقد استغرق حديثه عن المجاز، والكناية (14) صفحة، وبحث الاستعارة، والمجاز، والكناية في مواضع أخرى من الكتاب.

(3) انظر: ((فصل في حدي الحقيقة والمجاز)) ص259–269 ثم الفصول التي بعده إلى نهاية الكتاب.

(4) انظر: التبيان: 17.

(5) الإيضاح: 19.

بسبب من بعض))[1]لا يعني سوى النظم النحوي، والنظم بهذا المعنى، هو تركيب الكلام، وتعريفه هو تعريف الكلام عند النحويين، يقول الزمخشري: ((والكلام هو المركب من كلمتين، أسندت إحداهما إلى الأخرى))[2]وقد شرح الجرجاني الإسناد، أو تعلق الكلم بعضها ببعض، في نحو أربع صفحات، ثم قال في آخرها: ((فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه، وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض))[3]وفيه إشارة إلى أن المعيار في النظم النحوي هو الصحة والخطأ، وليس الحسن والقبح، كما هو الحال في النظم البلاغي الذي هو مستوى آخر من النظم، ويجمع الجرجاني بين هذين المستويين بقوله: ((اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها))[4]وبعد أن ذكر صوراً من ((وجوه كل باب وفروقه)) في الخبر، والشرط والجزاء، والحال، وهي من النظم في مستواه النحوي، كما هو معروف، قال في الصفحة التالية: ((فيعرفَ لكل من ذلك موضعه، ويجيءَ به حيث ينبغي له))[5]وهذا هو المستوى البلاغي للنظم، وهو مطابقته لمقتضى الحال، كما قال القزويني، فالمستوى الأول، هو نظم الكلام الذي ينظر إلى مطابقته، أو عدم مطابقته لقوانين النحو وأحكامه، والمستوى الثاني، هو النظم الصحيح الجاري على قوانين النحو، إذا نُظر إليه من جهة مطابقته أو عدم مطابقته لمقتضى الحال، وكلا الأمرين، أعني الصحة والفساد نحوياً، أو المزية والفضل بلاغياً، يعود إلى معاني النحو وأحكامه، ولكن من جهتين مختلفتين، استمع إليه يقول: ((فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه))[6]وانظر بعد ذلك إلى الأمثلة التي ذكرها لفساد النظم، مما يرجع الفساد فيها إلى مخالفة القياس النحوي، ثم أتبعها بأمثلة أخرى لـ((ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل))[7]وزاد الأمر إيضاحاً في فصل عقده بعنوان: ((فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤَم)) بدأه بقوله: ((وإذ قد عرفت

(1) الدلائل: 4.
(2) المفصل: 22. وانظر: شرح الرضي على الكافية: 31/1.
(3) الدلائل:8.
(4) نفسه: 81.
(5) نفسه: 82.
(6) نفسه: 83.
(7) نفسه: انظر: 83-86.

أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض، تفسير هذا: أنه ليس إذا راقك التنكير في (سؤدد) من قوله: ((تنقل في خُلُقي سؤدد)) وفي (دهر) من قوله: ((فلو إذ نبا دهر)) فإنه يجب أن يروقك أبداً، وفي كل شيء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يُسمّ فاعله في قوله: ((وأُنكِرَ صاحب)) فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا، بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تَؤُم، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش...))[1]ثم يمضي في مقارنة لطيفة بين الإبداع التعبيري والإبداع التشكيلي في عمل الرسام والنقاش، فكما أن الكلمة أو العبارة لها مقام يناسبها، فكذلك الألوان لها مواقعها التي تلائمها، إن كلام الجرجاني واضح في أن النظم النحوي، وما فيه من وجوه وفروق، لا تفيد مزيةً وفضلاً، وإنما مطابقة هذه الوجوه والفروق للمقام ومقتضى الحال، هي التي تكسب الكلام المزية والفضل، وهذه هي بلاغة الكلام عند البلاغيين، منذ أن وضع حدّها القزويني.

ويزداد الأمر جلاء إذا عرفنا أن النظم البلاغي له جانبان عند الجرجاني، كما عند غيره من البلاغيين والنقاد، الجانب الأول: هو المتعلق بالمتكلم وقدرته الإبداعية في المطابقة بين الكلام وبين مقامه، وهو ما عرفه القزويني بقوله: ((وأما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ))[2]وهذا جانب فني يتعلق بالمبدع، والكلام من هذه الناحية نص إبداعي، يتناوله نقاد الأدب بالدراسة والتقويم، ليضعوه في مكانه الذي يستحقه من الإبداع، وهذا الجانب الفني من النظم يستغرق مساحة كبيرة ومهمة من جهد الجرجاني في كتابيه (الدلائل) و(الأسرار) وهو ما برع فيه، وأثار إعجاب قارئيه، أما الجانب الآخر: فهو الجانب المعياري الذي سمي بعد الجرجاني بعلم البلاغة، وقام السكاكي بإحكام قواعده، وأتم عمله القزويني، وعدم التفريق بين هذين الجانبين أوقع كثيراً من المعاصرين في أخطاء بالغة في تفسير عمل الجرجاني، وتقدير مكانه من البلاغة العربية، وفهم ما سموه بنظرية النظم عنده، وموقع هذه النظرية المزعومة من النحو، أو البلاغة، أو النقد، أو نظريات علم اللغة الحديث، ونعتقد أننا نعيد الأمور إلى نصابها إذا قلنا أن فكرة النظم ومفهومها عند الشيخ عبد القاهر تتراوح بين الظاهرة النحوية، وفن الأدب

---

(1) الدلائل: 87.

(2) الإيضاح: 21.

والنقد، وعلم البلاغة، وهي حلقة مهمة من حلقات تطور البحث البلاغي، ومباحثه، ومصطلحاته، ومفاهيمه، ولا ينبغي أن تدرس إلا في هذا السياق.

غير أن استفاضة الشيخ عبد القاهر في الشرح والتفصيل، وافتراضه لقضايا عرضت له أثناء البحث، وحكمه عليها بالخطأ، ضلل كثيراً من الدارسين المعاصرين، وأوقعهم في أحكام غير دقيقة عن أفكار الرجل وآرائه فيما يتعلق بالبلاغة عامة، وبفكرة النظم بخاصة، ومن شواهد ذلك على سبيل المثال ما قاله أحدهم: ((وقد يرى آخرون أن النظم هو نظم ألفاظ، فيقولون: ((إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة)) ويرى عبد القاهر في ذلك مجافاة للحقيقة))[1]ويستشهد بقول الجرجاني في سياق الشرح لقول القاضي عبد الجبار: ((لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: ((ضحك خرج)) أن يحدث من ضم خرج إلى ضحك فصاحة))[2]ولا يمكن أن نتصور أن الشيخ عبد القاهر فهم كلام القاضي عبد الجبار بهذه الصورة، فكلام الأخير صريح بأن الفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة مثل: (ضحك، خرج) وإنما تظهر بضم الكلمات إلى بعضها على طريقة مخصوصة، وهذه الطريقة المخصوصة تتمثل في العلاقات التي تربط بينها، وهي علاقات نحوية، كما قال الجرجاني، وإذا عدنا إلى كلامه في الدلائل، نجد أنه يشرح كلام القاضي عبد الجبار ليستدل به على صحة رأيه، وليس للاعتراض عليه، يقول: ((فقولهم بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنييهما))[3]ولا ينبغي أن يفهم من كلام الجرجاني أن ثمة من يقول بمفهوم آخر للنظم، يعني ضم الكلمات إلى بعضها، من غير صلات وروابط بينها، أو كما يقول عن ذلك في موضع آخر: ((فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم، بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء، كيف جاء واتفق))[4]فهل يتصور من عاقل، فضلاً عن كونه عالماً أو أديباً، أن يعُدَّ نظم الكلام ضماً عشوائياً، كيف جاء واتفق؟! والجرجاني نفسه يقول هذا في مواضع من كتابه، منها قوله: ((واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم، ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل! ولا يخفى على أحد من الناس!.))[5]فهل كان الجرجاني يحاور غير العقلاء، أو أحداً من غير الناس؟!.

(1) عبد النبي اصطيف، نظرية النظم عند الجرجاني، مجلة الأقلام: ع11، س15، 1980م، ص 237.

(2) نفسه : ع11، س15، ص237.

(3) الدلائل: 394.

(4) نفسه: 49.

(5) نفسه: 55.

وينبغي أن نتذكر هنا أن السبب وراء إلحاح الجرجاني في الشرح والتفصيل في شأن النظم، ليس كونه حالة إشكالية في اللغة، أراد أن يجلي عنها الغموض والإبهام، أو يصحح ما وقع فيه الآخرون من الأخطاء والأوهام، بل لكونه من القائلين بأن نظم القرآن هو سبب إعجازه، وهذا القول المجمل في رأيه لا يشبع فضول المتسائلين عن أسباب الإعجاز وأسراره، فهم لا ينفكون يسألون: ((فخبرونا عنهم، عمّاذا عجزوا؟ أعن معانٍ من دقة معانيه، وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم: عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللفظ...؟ فقلنا : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه،...))[1].

وإجابته هنا تعبير عن رأي القائلين بالإعجاز اللغوي البياني، الذين رأوا أن النظم هو التعبير الأنسب عن رأيهم هذا، فليس في كلامه ما ينم عن مخالفة لأحد، وكل ما قصده هو أن هذا الكلام المجمل لا يكفي لإقناع المتسائلين، وإفحام المعارضين، وأن لابد من الخوض في تفاصيل مزايا النظم وخصائصه التي ميزت النظم القرآني من سائر كلام العرب، ولا وجه لقول القائل، مثلاً، أن ثمة تبايناً ومقابلة ((بين بلاغة العبارة وبلاغة النظم))[2]فهما شيء واحد؛ إذ لا تتشكل العبارة إلا بنظم عناصرها، وهي الكلمات، ولا معنى للنظم خارج إطار العبارة. وأوجز ما أردت قوله هنا في مسألتين:

الأولى: أن النظم بمعنى تأليف الكلمات، ونظمها في جمل وعبارات، ظاهرة لغوية لا تختص بها لغة عن غيرها من اللغات، وإنما تختص كل لغة بطريقة في نظم مفرداتها في عبارات وتراكيب، تعبر عن مقاصد المتكلمين بها، والنظم بهذا الاعتبار موضوع علم النحو، ومعياره الصواب والخطأ، والكلام يتفاوت ويتباين بحسب ملكات المتكلمين، وأساليبهم وقدراتهم على جودة صياغته، ومتانة سبكه، وهو ما قال به المتكلمون والبلاغيون والأدباء، على حد سواء، وكانوا يرمون إلى وصف الإبداع، وبيان تفاوت مراتب الكلام، في الفصاحة والبلاغة والبيان، والنظم بهذا الاعتبار فن يمارسه الأدباء والشعراء، ويتناوله النقاد بالتفسير والتقويم، ومعياره الجمال والقبح، أما البحث المعياري الذي يهتم بالقواعد والأصول التي تضبط التعبير اللغوي، وترفد الأدباء والنقاد بالمعايير الجمالية للإبداع، فذلك علم البلاغة، ولم يخرج الجرجاني عن هذه الدوائر في بحثه عن النظم، ولا يصدق على شيء منها اسم النظرية، وإنما يمكن إطلاق النظرية على النظم باعتباره أحد التفسيرات للإعجاز القرآني، فالإعجاز أمر اختلف فيه العلماء قديماً، وذهبوا في تفسيره مذاهب شتى، ولازال ميدان البحث فيه مفتوحاً للباحثين عن

---

(1) الدلائل: 39.

(2) حاتم الضامن، نظرية النظم: 4

أسراره[1]فالقول بالنظم نظرية في إطار البحث في ميدان الإعجاز القرآني، وهو خارج هذا الميدان ظاهرة لغوية يدرسها علم النحو، أو فن أدبي، أو علم في مجال البحث البياني أو البلاغي.

الثانية: أن الشيخ الجرجاني لم يختلف عن العلماء، والبلاغيين، ونقاد الأدب، الذين تحدثوا عن فكرة النظم، في أصل هذه الفكرة، فقد ذكر ((إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ...))[2] بل انفرد في بعض الأفكار التي أوردها في سياق تفسيرها، ومن ذلك قوله أن المتكلم يتوخى معاني النحو في نظمه للكلام، فأنت حين تنشئ كلاماً، إنما ((تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسمَ اسماً، على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه...))[3]ومنها أن الكلمات تترتب في الكلام بحسب ترتيب معانيها في النفس ((وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك، بحكم أنها خدم للمعاني...))[4]والجرجاني يعجب من حال الناس في عصره، الذين رفضوا رأيه مع إقرارهم بمبدأ النظم، ويعلل ذلك ((أنهم أول شيء عَدِموا العلم به نفسه، من حيث حسبوه شيئاً غير توخِّي معاني النحو، وجعلوه يكون في الألفاظ دون المعاني))[5].

على أن هناك من يرى أن هذه الأفكار ((لم يكن عبد القاهر مخترعاً لها، وإن كان هو الذي بسط فيها القول، وأقام على أساسها فلسفة كتابه، فقد سبق إليها أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي المتكلم (ت307هـ) الذي ألف كتاباً سماه (إعجاز القرآن في نظمه).))[6]ولا أدري من أين حكم بذلك وكتاب الواسطي مفقود لم يطلع عليه أحد، ولعل ما يؤيده أن الجرجاني شرح هذا الكتاب مرتين، ولكن شرحي الجرجاني كذلك لازالا مفقودين[7].

---

(1) ذكر الدكتور محمد عمارة عن الإمام محمد عبده رأيه بأن الإعجاز في القرآن ((ليس لغوياً في الأساس، كما أنه غير مستمد من كونه كتاب فن أو أدب أو تاريخ أو علوم...وإنما من كونه كتاب دين، يهدي الناس إلى المجتمع الفاضل، والطريق السوي، والخلق العظيم، على مر الأزمنة. ..)) الإمام محمد عبده مجدد الإسلام: 65.

(2) الدلائل: 80.

(3) نفسه: 55.

(4) نفسه: 54.

(5) نفسه: 546.

(6) د. بدوي طبانة، البيان العربي: 221.

(7) انظر: نظرية النظم، حاتم الضامن: 13.

وتفسير الجرجاني للنظم من هاتين الناحيتين هو أضعف ما في فكره البلاغي، وجهوده التي لاقت الاستحسان والقبول من علماء البلاغة الذين جاءوا بعده، فعرفوه إماماً في هذا الميدان، وفارساً من فرسان البيان، ولعل استحسانَهم هذا هو الذي جعلهم يتجاهلون هذه الأفكار التي لم يوافقوه عليها، ويغضون الطرف عنها، ولم يكن ذلك عن عدم اعتناء بجهوده وفكره، كما قدر البعض(1).

وفي المقابل وجه المعاصرون كل اهتمامهم إلى هذا الجانب من جهود الجرجاني، وبالغوا في الاحتفاء به، والتهويل من شأنه، وشرّقوا وغرّبوا، وأوّلوا وأغربوا، وتحدثوا عن مقاربات غير دقيقة بينها وبين بعض النظريات المعاصرة، في مجال الدراسات اللغوية والنقدية، وهذا ما نتحدث عنه في المبحثين التاليين:

النظم ومعاني النحو:

يؤكد الشيخ عبد القاهر، وبإصرار شديد على أن المتكلم يتوخى في نظمه للكلام معاني النحو، فالكاتب أو الشاعر ينظم كلامه على أساس قواعد النحو وقوانينه، فيتوخى ما يكون مبتدأً أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً، فامرؤ القيس–على سبيل المثال– حين قال:

* قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ *

توخّى ((كونَ (نبكِ) جواباً للأمر، وكونَ (مِنْ) مُعَدِّيةً له إلى (ذكرى) وكونَ (ذكرى) مضافةً إلى (حبيب) وكونَ (منزل) معطوفاً على (حبيب)...))(2)ولو كان غير الجرجاني قائل هذا الكلام، لطال عليه التشنيع، وصوبت إليه سهام النقد، من قبل كثير من المعاصرين، ولقيل عنه أنه قمع قرائح الشعراء والأدباء، حين ألزمهم بقوالب النحو الجامدة ، ومنطقه المتعسف، وفرض عليهم قوانينه الصارمة، والقرائح لا تنطلق، والإبداع لا يزدهر، إلا بعيداً عن هذه القيود، ولحملوه مسؤولية كل تقصير وقع ممن جاءوا بعده، كما فعلوا مع السكاكي، ولم يقل مثل قوله، ولا قريباً منه، فالكلام ملكة عند المتكلم، لا يتوخى فيها قواعد اللغة وقوانينها، بل اللغة نفسها هي التي تتوخى هذه القوانين وتنتظم على أساسها، والكلام البليغ أسبق في الوجود من علم النحو وأصوله ورسومه، ويبدو أن الجرجاني قد واجه مثل هذا الاعتراض، فذكره بقوله: ((قالوا: لو كان النظم يكون في معاني النحو، لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر، وشيئاً مما يذكرونه، لا يتأتى له نظم كلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو)) وكان رده عليه ((أن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات، لا بمعرفة العبارات، فإذا

(1) انظر: د. أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده: 28

(2) الدلائل: 363.

عرف البدوي الفرق بين أن يقول: ((جاءني زيد راكباً)) وبين قوله: ((جاءني زيد الراكب)) لم يضرَّه أن لا يعرف أنه إذا قال: (راكباً) كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في راكب أنه حال، وإذا قال: (الراكب) أنه صفة جارية على (زيد)...))[1]وإجابته هذه لا ترد عن مقالته سهام الاعتراض، فمعاني النحو التي تكتسبها الكلمات من خلال مواقعها الإعرابية، كالفاعلية والمفعولية والحالية، غير معنى الكلام الذي يتوخاه المتكلم ويقصده، فهذه المعاني –كما نص هو نفسه– لا علاقة لها بمعاني الألفاظ، إذ قال بعد أن أعرب سورة الفاتحة كاملة: ((فانظر الآن، هل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون (الحمد) مبتدأً معنى لفظ (الحمد)؟ أم يكون كون (رب) صفة، وكونه مضافاً إلى (العالمين) معنى لفظ الرب؟))[2]فالمنشئ أو المتكلم يتوخى معاني الألفاظ ودلالاتها، وعلى مقتضى هذه المعاني تترتب معاني النحو، وليس العكس، كما قال الجرجاني.

هاهنا إذن مستويان من المعنى، متغايران متباينان، والذي يراعيه المنشئ والمتكلم هو معاني الألفاظ، ودلالات التراكيب، وليس المعاني النحوية، ومن الشواهد التي أوردها الجرجاني نفسه، ويمكن الاستدلال بها على تهافت تفسيره للكلام ونظمه، هذه القصة: ((قدم ذو الرُّمة الكوفة، فوقف ينشد الناس بالكناسة قصيدته الحائية التي منها:

....

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال: فلما انتهى إلى هذا البيت، ناداه ابن شُبرُمة: يا غيلان، أراه قد بَرِح! قال: فشنق ناقته، وجعل يتأخر بها ويفكر، ثم قال:

إذا غير النأي المحبين لم أجدْ رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال [راوي القصة وهو غيلان بن الحكم]: فلما انصرفت حدثت أبي، قال: أخطأ ابن شُبرمة حين أنكر على ذي الرُّمة ما أنكر، وأخطأ ذو الرّمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة، إنما هذا كقول الله تعالى: ((ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)) وإنما هو: لم يرها ولم يكد.))[3]وأيد الجرجاني رأي الحكم في تخطئته ابن شبرمة وذا الرمة، وشرح ذلك في نحو صفحة، فانظر كيف أصاب الشاعر حين جرى مع ملكته اللغوية، من غير توخٍ لمعاني النحو، وكيف أخطأ حين توخى هذه المعاني، وإنما يتوخى معاني النحو أهل النحو لأغراض تعليمية في الغالب، ولتفسير الكلام أحياناً لمن يفهمون هذه اللغة، ويفقهون مصطلحاتها.

---

(1) نفسه: 418

(2) الدلائل: 453

(3) نفسه: 274.

إن عملية نظم الكلام تتم كما وصفها أبو هلال العسكري: ((إذا أردت أن تصنع كلاماً، فأخطر معانيه ببالك، وتنوق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها...))[1]فالناظم للكلام يستحضر المعاني، ويتخير الألفاظ، من غير أن يشغل نفسه بمواقعها الإعرابية، وما يكون منها مبتدأً، أو خبراً، أو حالاً، فالألفاظ هي التي تأخذ مواقعها، بحسب ما يتطلبه المعنى الذي يقصده المتكلم، لكن الجرجاني يخلط بين هذه المعاني التي قصدها أبو هلال، والتي لابد وأن تخطر ببال المتكلم، وبين معاني النحو، التي هي من شأن اللغة وطبيعتها، يتضح ذلك بجلاء من خلال قوله: ((وإن أردت مثالاً فخذ بيت بشار:

كأن مُثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليل تهاوى كواكبه

وانظر، هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفراداً عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأن) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكر في (مُثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني...؟ أم لم يُخطر هذه الأشياء بباله إلا مُراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟))[2]وقال قبل ذلك: ((وإنا إن بقينا الدهر، نجهد أفكارنا، حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها، وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها، ويجعل بعضها بسبب من بعض، غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها، طلبنا ما كل محال دونه...))[3]

وهنا مغالطة قد تنطلي على الكثيرين فيظنون أن الجرجاني قد اكتشف أموراً خفيت على الأولين، وغاب فهمها عن الآخرين، حتى جاء سوسير فكشف لهم عن خفايا عبقريتها، يقول الدكتور محمد مندور: ((وفي الحق أن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميته، ... مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناند دي سوسير))[4]ويقول آخر: ((ولكن لسوء الحظ لم يُفهم منهج عبد القاهر على وجهه، ولا استُغل كما ينبغي، ولقد قامت اليوم في أوربا نظريات وأصول على فكرة أن اللغة مجموعة من العلاقات، واستخدمت تلك الأصول في فلسفة اللغات، في نقد الآداب... هذا المنهج الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني خليق أن يجدد فهمنا لتراثنا الأدبي كله، وإذا لم يكن بدّ من تدريس شيء نسميه البلاغة!! فلتكن بلاغة دلائل الإعجاز))[5]ومن يقرأ للدارسين المعاصرين المتأثرين بالأفكار والنظريات الغربية في اللغة

(1) كتاب الصناعتين: 133. الباب الثالث في كيفية نظم الكلام.

(2) الدلائل: 411-412.

(3) نفسه: 392.

(4) النقد المنهجي عند العرب: 326.

(5) د. فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، بين الأصالة والتبعية: 294.

والنقد الأدبي، يجد كثيراً من مثل هذا الكلام الذي يستهين بتراثنا البلاغي، ولا يرى فيه شيئاً يستحق الاهتمام، غير دلائل الإعجاز، بل لا يرى في دلائل الإعجاز إلا أضعف ما فيه، وهو ما سموه بنظرية النظم.

نعود إلى الشيخ عبد القاهر، ورأيه في توخي معاني النحو، فهو يرى أن بشاراً حين أراد أن يصف مشهد الغبار الذي ارتفع فوق رؤوس المقاتلين، حتى حجب عن أعينهم ضوء النهار، ولمعانَ سيوفهم في هذا الجو المظلم، وقد تطاير منها الشرر وهي تلتقي بسيوف الأعداء في الحرب، أوحت له هذه الصورة بصورة الكواكب وهي تتهاوى من السماء في الليل المظلم، وأراد أن يعقد هذا التشبيه بين الصورتين، فاستحضر أداة التشبيه (كأن) وبحث لها عن اسم هو (مُثار) ثم أضافه إلى (النقع) وجاء بالظرف (فوق) وأضافه إلى (الرؤوس)، ثم ألحق خبر كأن باسمها، وهو (ليل) وجاء بجملة لتكون صفة لكلمة ليل، وهذه الجملة كونها من الفعل (تهاوى) وفاعله (كواكبه) لتتم له صورة التشبيه التي أرادها، إن هذه الصورة يمكن أن تتم بهذه الطريقة، فيما لو كانت مادتها الخشب أو الورق أو الأصباغ، أما أن تكون من فكر وخيال وعاطفة، فلا يمكن أن نوافق الجرجاني على وصفه، ويمكن أن نشم من كلامه رائحة الجدل الكلامي، فهو يصدر عن قابلية فذة في إثبات مذهبه الكلامي، تذهل قارئه عن الحقيقة، ويذكرنا بمقولة الإمام مالك المشهورة عن الإمام أبي حنيفة: ((لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً، لقام بحجته)) ولكن هذه البراعة في عرض الحجة لا تغير من حقيقة الأشياء، ولا تحول السارية إلى ذهب، وهكذا لم يستطع الجرجاني أن يقنع أهل زمانه، ولا القرون العديدة التي جاءت بعده، بهذه الفكرة، ولم تلقَ محاولة الزملكاني الذي أعاد صياغتها في كتابيه (البيان) و(البرهان) قبولاً عند البلاغيين، ولا أعرف أحداً وقف عندها بعده سوى شهاب الدين الحلبي (ت725هـ) وقد أقحمها في كتابه بعد مباحث علم المعاني[1]واستنسخها عنه معاصره شهاب الدين النويري (ت733هـ)[2].

إن الأطفال منذ أن ينطلق لسانهم بالكلام، ينطقون لغة سليمة جارية على قواعد اللغة، إذا نشؤوا في بيئة لغوية سليمة، ولا يتصور منهم أن يتوخوا هذه القواعد، وكذلك الحال بالنسبة للكبار، فمن الغرابة بمكان أن نتصور أن الشعراء يتوخون معاني النحو بالشكل الذي وصفه الشيخ عبد القاهر، بل إن علاقة كثير منهم بالنحو والنحويين لم تكن علاقة ودية، فثمة شواهد تدل على تضايقهم من عرض أشعارهم على قوانين النحو، فضلاً عن توخيهم لها، يقول قائلهم:

ولست بنحوي يلوك لسانه   ولكن سليقي يقول فيعرب

(1) انظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل: 178.

(2) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: 7/ 87.

وقصة بشار نفسه مع الأخفش الذي طعن عليه شعره، معروفة، وحين بلغه ذلك قال: ((ويل على القصار ابن القصارين، متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصارين؟!)) وفي موقف آخر هجا بشارُ سيبويه، وأقذع في هجائه[1]،ومثل ذلك قصة الفرزدق مع عبد الله بن إسحق الحضرمي (ت117هـ)[2]وهذه الأبيات من قصيدة لأحدهم تصور العلاقة المتشنجة بين الفريقين، يقول:

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
إن قلتُ قافيةً بِكراً يكون بها ... بيت خلافَ الذي قاسوه أو ذرعوا
قالوا: لحنتَ، وهذا ليس منتصباً ... وذاك خفض، وهذا ليس يرتفعُ
إني نشأتُ بأرضٍ لا تشبُّ بها ... نار المجوسِ ولا تُبنى بها البيعُ
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قومٍ على إعرابهم طُبِعوا
تكلفٌ لا تزال النفس في تعبٍ ... منه، وما فيه، إن حصلتَ منتفعُ[3]

فالشاعر والأديب لا يرضى أن تحكمه غير سليقته اللغوية، وهي إن صحت، تجري على سجيتها مع قواعد اللغة وأصولها، من غير أن يتوخى شيئاً منها، وحال الشاعر مع معاني النحو كحاله مع بحور الشعر وتفعيلاته، يجري شعره مع أمواجها، من غير توخٍ لها، فهو لا يتوخى سوى موسيقى الشعر، كما يتوخى المتكلم معاني الكلام في النثر، وقد اكتشف الخليل بحور الشعر من أشعار العرب التي لم يعرف أصحابها هذه البحور، ولا توخوها، كما اكتشف هو وسيبويه وغيرهما معاني النحو من كلام العرب وأشعارهم من غير أن يتوخوها هم، والجرجاني، كغيره، يقر بسبقهما في كشف هذه المعاني، كما يقر بسبق الجاحظ في الأدب، ويقول في ذلك: ((فلو كان إذ سبق الخليل وسيبويه في معاني النحو، إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم، لم يسبق الجاحظ في معانيه التي وضع كتبه لها، إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه... لكان لهم في ذلك متعلق...))[4]وعن نظم الشعر يقول ابن سنان: ((فإن النظم مبني على الذوق، ولو نظم بتقطيع الأفاعيل، جاء شعره متكلفاً غير مرضي))[5]وما يقال عن نظم الشعر يقال عن نظم الكلام الذي يجري على قوانين اكتشفها النحاة ولم يخترعوها، وقول الجرجاني بأن هذه القوانين هي السلك الذي ينتظم مفردات اللغة، ويجمع شملها ويؤلف بينها، مقدمة صحيحة وبديهية، ولكن النتيجة التي بناها على هذه المقدمة، وهي أن المتكلم يتوخى هذه القوانين، ويقتفي أثرها في إنشاء

(1) انظر: الموشح: 245-247.
(2) انظر: خزانة الأدب للبغدادي: 347/2.
(3) معجم الأدباء: 26/5 ط.أوربا.
(4) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، مطبوعة مع دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر: 606.
(5) سر الفصاحة: 342

الكلام، غير صحيحة، ولم يقل بها أحد غيره، وقد يكون الجرجاني في تفسيره لنظم الكلام بهذه الطريقة واقعاً تحت تأثير صنعة النحو الغالبة عليه، ويدل على ذلك قوله في وصف عمله في دلائل الإعجاز: ((...وإنه على الجملة بحث ينتقي لك من علم الإعراب خالصه ولبَّه...))[1]فهو نحوي، بل علم من أعلام النحو في زمانه، وتشهد مؤلفاته في النحو أنه لم يخرج عن أصول النحاة، ولم يسلك طريقاً غير طريقهم، كما توهم بعض المعاصرين، حين قرؤوا كلامه في دلائل الإعجاز قراءة متعجلة وسطحية[2].

وثمة عامل آخر كان له الأثر الحاسم في صياغة هذه الفكرة عند الجرجاني، ذلك هو مذهبه الكلامي الأشعري في قضية اللفظ والمعنى، ومما يدل على ذلك قوله بعد كلام مستفيض في بيت بشار السابق: ((فقد أراك ذلك، إن لم تكابر عقلك، أن النظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها! وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها))[3]وهذا يقودنا إلى بحث هذه القضية.

النظم وقضية اللفظ والمعنى:

حين سجل الجاحظ موقفه المعروف من الشعر ونقده، في قولته المشهورة ((المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير))[4]أراد الانحياز إلى الفن في مقابل اتجاه كان لا يرى في الشعر إلا وعاء يحمل المعاني والأغراض، فما ذكره في هذه العبارة يحيط بكل عناصر الشكل الفني للشعر، وهذا هو الإطار الذي ينبغي أن يوضع فيه كلام الجاحظ، إطار الشكل والمضمون الذي لازال يشغل حيزاً مهماً في الدراسات النقدية إلى اليوم، أما ثنائية اللفظ والمعنى، والخلاف حولهما، فقد كان لها سياق آخر، ((وقد كان منشأ هذا الخلاف حول موضوع ديني، هو كلام الله، ثم تخطى هذا الصراع ميدان هذه القضية إلى كلام الناس،...فقد

(1) الدلائل: 42.

(2) يقول الدكتور تمام حسان: ((إن ما تركه لنا عبد القاهر الجرجاني من دراسات في دلائل الإعجاز وغيره، يعتبر إشارات ذكية إلى الطريق الذي كان على النحاة أن يسلكوه بدراستهم للنحو، وبخاصة ما قام به عبد القاهر من دراسة للنظم في اللغة العربية)) اللغة العربية: معناها ومبناها: 336.

ويقول الدكتور رجاء عيد: ((انتبه عبد القاهر لعمل النحوي كما هو مفروض، واتضح ذلك فيما يظنه كثير من الدارسين عمله الأوحد –قضية النظم– الذي انتبه فيه، أو طبق فيه تلك المهمة الأساسية للنحوي! ولعل ذلك يرجع إلى صريح عباراته التي يقول فيها: ((واعلم أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله...)) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: 18.

(3) الدلائل: 415.

(4) الحيوان: 132/3.

أثبت القاضي عبد الجبار أن الكلام هو الأصوات المقطعة، لا المعنى القائم في النفس، ((يدل على ذلك استحالة وجود الكلام عارياً من الأصوات المقطعة)) أما أهل السنة فيرون أن كلام الله نفسي قديم، قائم بذاته، وهو غير الحروف المقطعة، والأجسام التي يكتب عليها))[1]ويضيف الدكتور السامرائي عن هذه القضية: ((ومعلوم أن أول من قال بالكلام النفسي، الأشعري[2]على أن قاطف ثمار هذا القول هو الإمام عبد القاهر في نظريته، فنظرية النظم –كما هي عنده– ليست إلا انتصاراً، في وجه من وجوهها، لمذهب أهل السنة القائلين بالكلام النفسي، على المعتزلة وأضرابهم))[3].

من هنا نعلم أن الجرجاني أقحم هذه القضية الكلامية في البحث البلاغي، فحاول تفسير الكلام على ضوء هذه الثنائية الحادة بين اللفظ والمعنى، رافضاً أن يكون للفظ أية مزية في الكلام، ومتأولاً لكل ما قيل عن دور اللفظ في نظم الكلام ليتفق مع موقفه الكلامي، يقول ((فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني، وحلية عليها، أو يجعلون المعاني كالجواري، والألفاظَ كالمعارض لها، وكالوشي المحبر، واللباس الفاخر، والكسوة الرائقة، إلى أشباه ذلك مما يفخمون به أمر اللفظ، ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف، فاعلم أنهم يصفون كلاماً قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه عن طريق معنى المعنى، فكنّى، وعرّض, ومثّل، واستعار، ثم أحسن في ذلك كله وأصاب، ووضع كل شيء موضعه... فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض، والوشي، والحلي، وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يومأ إليها بتلك المعاني، هي التي تُكسى تلك المعارض، وتُزين بذلك الوشي والحلي.))[4]فالألفاظ ليس لها حتى دور التزيين للمعنى، فضلاً عن أن تكون مناط بلاغة أو فصاحة، فهو يؤكد في كل مناسبة ((أن الفصاحة والبلاغة، وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يُدل عليه بالألفاظ، دون الألفاظ أنفسها،...وبأن لا نصيب للألفاظ، من حيث هي ألفاظ، فيها بوجه من الوجوه...))[5].

حتى الجناس في نحو قول الشاعر:

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعاني أمت بما أودعاني

وهو محسن لفظي بإجماع البلاغيين، لا يرجع شيء من التحسين فيه إلى اللفظ، بل إلى المعنى الذي زاد، والفائدة التي تحققت[6]، ولا أدري ما الذي ينقص من المعنى، أو يفوت من

---

(1) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، د. مهدي صالح السامرائي: 77.

(2) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت324هـ) .

(3) نفسه: 84.

(4) الدلائل: 263–264.

(5) نفسه: 259.

(6) انظر: أسرار البلاغة: 10–11.

الفائدة، إذا أبدل الشاعر (ناظراه) الثانية إلى (عيناه) أو (مقلتاه) أو جعل المخاطبين ثلاثة، وليس اثنين، فقال:

ناظروه فيما جنى ناظراه　　　أو دعوني أمت بما أودعاني

وفي المقابل، هل يبقى الجناس وأثره التحسيني كما كان؟! بل إن التورية اللطيفة في لفظ (ناظراه) يقترن وجودها بوجود (ناظراه) الأولى، وتزول بأي تغيير يطرأ على الألفاظ المذكورة.

بل ينطبق هذا الحكم على الطباق، والاستعارة، وسائر أقسام البديع، وهاك نص كلامه: ((وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ نصيب، أو يكون لها في التحسين، أو خلاف التحسين، تصعيد وتصويب))[1].

المعاني إذن هي المحور الذي يدور حوله فكر الشيخ عبد القاهر، وتفسيره للنظم، فهو يُبدئ ويعيد في التنويه بها، وأنها مدار الفصاحة والبلاغة، ومناط التفاضل والمزية في الكلام ((...وأنت، إن أردت الحق، لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى، فاللفظ معك، وإزاء ناظرك!))[2].

ولكنه يفاجئ قارئه بكلام يناقض هذا كله، وكأنه يرد على نفسه إذ يقول: ((واعلم أن الداء الدويّ، والذي أعيى أمره في هذا الباب، غلط من قدّم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية، إن هو أعطى، إلا ما فضل عن المعنى، يقول: ((ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟)) فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً، واشتمل على تشبيه غريب، ومعنى نادر...))[3]وكأنه يريد الإشعار بتناقض هذا الكلام مع ما قرره من قبل ومن بعد، وأنه مخالف لما يهجس في ضميره، حين يقول: ((واعلم أنّا، وإن كنا إذا اتبعنا العرف والعادة، وما يهجس في الضمير، وما عليه العامة، أرانا ذلك أن الصوابَ معهم! وأن التعويل ينبغي أن يكون على المعنى! وأنه الذي لا يسوَّغ القول بخلافه، فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق! وإلى ما عليه المحصلون، لأنا لا نرى متقدماً في علم البلاغة، مبرّزاً في شأوها، إلا وهو ينكر هذا الرأي، ويعيبه، ويزري على القائل به، ويغض منه))[4].

---

(1) نفسه: 19.

(2) الدلائل: 62.

(3) نفسه: 251.

(4) نفسه: 252.

وهكذا يعود الجرجاني إلى ما قاله الجاحظ وغيره، فيقول: ((ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يُعبَّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار))[1].

وقد أدرك القزويني هذا التناقض في كلام الجرجاني، فقال بعد أن نقل بعض كلامه السابق: ((هذا لفظه، وهو صريح في أن الكلام –من حيث هو كلام– لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه، ولاشك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة، فلا تكون راجعة إلى المعنى، وقد صرح فيما سبق بأنها راجعة إلى المعنى دون اللفظ!))[2].

بعد هذا العرض لأفكار الشيخ عبد القاهر التي جاءت في سياق تفسير فكرة النظم في الكلام، نذكر بعض الأوهام التي نسجت حولها، ومنها القول بأن الجرجاني هو الذي طور نظرية ائتلاف اللفظ والمعنى ((حتى وصلت منتهاها في نظرية النظم...وهكذا استطاع عبد القاهر أن يضع رؤية جمالية جديدة ناضجة، بقضائه على ثنائية اللفظ والمعنى))[3]وقد رأينا أن الجرجاني قضى على هذه الثنائية لحساب المعنى، وسفه كل رأي قائل بائتلاف اللفظ والمعنى، فالنقد العربي كان قد عرف هذا الائتلاف في صورة الروح والجسد، كما أُثر عن العتابي (ت نحو220هـ) في قوله: ((الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حوِّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية.))[4]وفي هذا النص وصف دقيق للوحدة العضوية في النص، فضلاً عن الائتلاف والتلاحم بين اللفظ والمعنى.

وينبغي أن نُذكِّر هنا بأن الذين نسبوا للجرجاني هذا الرأي، إنما نظروا إلى قوله الذي نقلناه آنفاً، والذي انحصر في ست صفحات فقط، أُقحمت إقحاماً في كتابه المؤلف من أكثر من خمسِمئة وخمسين صفحة، وهو في هذه الصفحات الست لم يزد على أن ذكر رأي الجاحظ وتبناه، في حين أن الكتاب كله يعد رداً على الجاحظ ورأيه، ليس في سياقه الفني، وإنما في إطار الخلاف الكلامي بين المعتزلة والأشاعرة، ولذلك فلا وجه للمقاربة بين رأي الجرجاني في اللفظ والمعنى، وبين آراء بعض النقاد الغربيين في العلاقة بين الشكل والمضمون، مثل كولردج الذي ((يرى أن الشكل والمضمون يتحدان اتحاداً تاماً حتى يصعب الفصل بينهما، فالشكل ليس إلا المظهر الخارجي للمضمون))[5]أو القول بأن ((كروتشه (1866–1952) مثلاً، لا يبعد رأيه كثيراً

(1) نفسه: 254.

(2) الإيضاح: 20.

(3) عبد الكريم مجاهد، اللفظ والمعنى عند النقاد والبلاغيين، مجلة الأقلام: ع 9 / 1981، ص31.

(4) كتاب الصناعتين: 161.

(5) اللفظ والمعنى عند النقاد والبلاغيين: ع1981/9 ص 31.

عن رأي الجرجاني حين يقول: ((الفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة، إلا إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ...)).)[1]أو القول بأن الجرجاني أبان في حديثه عن النظم عن مفهوم خاص للنحو، هو نحو النص المتصل، في مقابل نحو الجملة المفردة.[2]وأن دراسته ((للنظم وما يتصل به، تقف بكبرياء كتفاً إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، وتفوق معظمها، في مجال فهم طرق التركيب اللغوي...))[3].

وهذه الأقوال، ومثلها كثير فيما كتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالنظريات الغربية في الدراسات اللغوية والنقدية، ما هي إلا أوهام قامت على أساس الانبهار ببريق الحداثة، والجري وراءها من جهة، والنظرة السلبية إلى تراث اللغة العربية، في النحو والبلاغة والنقد، من جهة أخرى، والتركيز على فكرة النظم عند الشيخ الجرجاني، بهذا الشكل، هدفه التغطية على الإنجازات الكبيرة للبلاغة العربية، والغمز من جانبها، فالبلاغة العربية تجاوزت ثنائية اللفظ والمعنى، وأخذت بفكرة الصياغة الفنية للأسلوب، والشيخ الجرجاني هو الذي بعث هذه الثنائية، وأكد عليها، بناء على توجهاته الكلامية، كما ذكرنا، والحق في هذا المجال هو الذي قاله الدكتور بدوي طبانة: ((إذا كانت البلاغة تُعنى قبل كل شيء بالأسلوب، وهو مجال تلك الصناعة، فإن عبد القاهر، على هذا، من الذين يناوئون ذلك الرأي، ويسيرون في اتجاه مضاد لاتجاه سير البلاغة.))[4].

كما أن البلاغة العربية قالت بفكرة المقام، أو مقتضى الحال، منذ وقت مبكر، وهو ما لم يشر إليه الشيخ عبد القاهر من قريب أو بعيد، وهذه الفكرة التي تراعي المخاطب المتلقي، بالإضافة إلى مقتضيات السياق في النص، أقرب إلى روح الإبداع من فكرة النظم، كما فسرها عبد القاهر، وهو ما ينبغي الوقوف عنده، إذا أريد تقويم التراث البلاغي، وفكرة النظم عند الشيخ عبد القاهر.

هذا الاتجاه الذي سارت فيه البلاغة العربية، أكدته التجارب الأدبية والنقدية، قديماً وحديثاً، فقد قال أرسطو: ((وعلينا بعد هذا أن نتكلم عن الأسلوب، إذ لا يكفي أن يعرف المرء ما يجب عليه أن يقوله، بل عليه أيضاً أن يعرف كيف يقوله...))[5].

وفي هذا السياق يقول الدكتور بدوي طبانة: ((وكثير من أدباء الغرب، ونقاد الأدب عندهم، يذهبون هذا المذهب في الانتصار للأسلوب، والدفاع عن الصنعة، والتهوين من شأن

(1) نفسه: 25.

(2) انظر: د. تمام حسان، الأصول: 316.

(3) د. تمام حسان، اللغة العربية، معناها ومبناها: 18.

(4) البيان العربي: 262.

(5) الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي: 193.

المعاني، ومن كلام (فولتير) أن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها، أي من نواحي القوالب التي تصب فيها، لأن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب، ولكن الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب.

ورأي (أناتول فرانس) أن الفكر ليس ملكاً لمن يبتدعه، وإنما هو ملك لمن يثبته في الأذهان، وهذا الكلام قريب من قول أبي هلال العسكري: أن الذي يأخذ معنى غيره فيكسوه بألفاظ جديدة، ويصوغه صياغة جيدة، جدير بأن ينسب المعنى إليه))[1].

وهذه الفكرة الأخيرة أيضاً ردّها الشيخ عبد القاهر، ووصف القائلين بها بالغفلة الشديدة، لأنها تخالف إيمانه بالمعنى.[2].

---

(1) قضية اللفظ والمعنى- مجلة الأقلام: ع6/ 1965 ص87.

(2) انظر: الدلائل: 483 وما بعدها.

المصادر والمراجع

1- الأدب الصغير، عبد الله بن المقفع (ت142هـ) تحقيق: أحمد زكي، مصر، 1911م.
2- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، دار ومطابع الشعب، القاهرة، 1960م.
3- أساليب بلاغية – الفصاحة – البلاغة – المعاني، د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 1، 1980.
4- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط3، 2001م.
5- الأصول: دراسة أبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، نشر مشترك: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر- دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1988م.
6- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 739هـ) تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2004م.
7- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت651هـ) تحقيق: د.خديجة الحديثي و د.أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1974م.
8- البلاغة: تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط6، 1965م.
9- البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، د. فضل حسن عباس، دار النور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1989.
10- البيان العربي – دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، ومناهجها ومصادرها الكبرى، د. بدوي طبانة، مكتبة الأنكلو المصرية، ط 6، 1976م.
11- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب، ط 1، 1968م.
12- تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، د. مهدي صالح السامرائي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 1، 1977م.
13- تاج العروس للزبيدي محمد مرتضى (ت 1205هـ)، المطبعة الخيرية، مصر، 1306هـ.
14- التبيان في علم البيان المُطلع على إعجاز القرآن، كمال الدين الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1964م.

15- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ)، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
16- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق: كرنكو، ط. حيدر آباد الدكن بالهند، 1344هـ.
17- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي (ت725هـ) تحقيق: أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1980م.
18- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1965م.
19- الخطابة، أرسطو، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، د.ت.
20- دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط3، 1992م.
21- الرسالة الشافية، عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) مطبوعة مع دلائل الإعجاز بتحقيق محمد شاكر.
22- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) تحقيق: عبد العال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، 1953م.
23- الصحاح، للجوهري، إسماعيل بن حماد (ت398هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، 1377هـ.
24- عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، بيروت، ط1، 1973م.
25- علم أساليب البيان، د. غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
26- العين، المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، الأب أنستاس الكرملي، بغداد، 1914م.
27- الفاضل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت286هـ) تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1956م.
28- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، (د. ت).
29- قضية اللفظ والمعنى، د. بدوي طبانة، مجلة الأقلام، ع6، س1، 1965.
30- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت395هـ) تحقيق: أبو الفضل والبجاوي، مطبعة البابي الحلبي بمصر، 1971م.
31- لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ)، دار صادر، ط3، 1994م.

32- اللغة العربية: معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1979م.
33- اللفظ والمعنى عند النقاد والبلاغيين، عبد الكريم مجاهد، مجلة الأقلام، ع9، س16، أيلول، 1981م.
34- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت 637هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1939م.
35- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسدآبادي (ت 415هـ) الجزء السادس عشر (إعجاز القرآن)، تحقيق: أمين الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1960م.
36- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808هـ) دار العودة، بيروت، 1981م.
37- مناهج بلاغية، د. أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973م.
38- نظرية النظم، د.حاتم الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، الموسوعة الصغيرة، بغداد 1979.
39- نظرية النظم عند الجرجاني، عبد النبي اصطيف، مجلة الأقلام،ع11، س15، آب 1980.
40- النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
41- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت733هـ) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب،(د.ت).